ليبنتس

LEIBNIZ.

بين الفلسفة والدين

للاستاذ عثمان أمين

ليسانسيه فى الفلسفة والآداب

ليبنتس فيلسوف المانى عاش فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . ويعتبر هو والفيلسوف «كانت» أكبر فلاسفة الألمان ومن أشهر فلاسفة العالم . منحه الله عقلا واعيا ، واستعدادا عجيبا لفهم الناس وقبول أقاويلهم المتباينة ، والتوفيق بين مختلف نزعاتهم ووجهات نظرهم : فكان يقول إن فى كل رأى وفى كل نظرية — مهما يكن شأنها — شيئا من الحق ، لو تدبرنا وكنا فى حكمنا من المتريثين . وكان يحترم نتاج الفكر أيا كان ، ويأخذ الحكمة أنى وجدها ، وعن أى لسان وفى أى كتاب . عكف على الاطلاع منذ صباه ، فكان يقرأ كل ما يقع فى يده من الكتب ، وبدأ يتفلسف وهو بعد صبى يافع . وهو يحدثنا أنه كان يسير فى متنزه ليبزج ولما يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، فيسائل نفسه أينحاز الى فلسفة ارسطاطاليس أم ديمقريطس .

برع فى الفلسفة ونبغ فى العلوم الرياضية وفى القانون وفى التاريخ وفى فقه اللغة ، وفى جملة فروع المعرفة الانسانية . تقلد عدة مناصب ذات بال ، وتقلب فى أعطاف النعيم والجاه دهرا . واذا كان قد وجد من الفلاسفة والمفكرين أمثال : سبينوزا وروسو ، من قضى حياته هم وعزلة وانقباض عن الناس ، فان الفيلسوف ليبنتس قد أقبل على الدنيا خير إقبال أو قل إن الدنيا هى التى أقبلت عليه فلم يعرف من الحياة غير وجهها المشرق الباسم ، وكان فيها من السعداء الهانئين .

عرف أكثر مفكرى أوربا فى عهده ، وجرت له معهم مراسلات ومناظرات ، واتصل بكثيرين من الأمراء والعظماء : توثقت الروابط بينه وبين امبراطور النمسا ، وبين بطرس الأكبر قيصر روسيا ، كما لبث مستشارا وصديقا حميما لأمراء هانوفر . أنشأ أكاديمية

برلين ، وسعى للتقريب بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتيه .

حباه الله علماً ودينا ، وأسبغ عليه خلقاً وفضلا ، وهيأ له ماشاء من مراتب الشرف والاقبال . وانك لتلمح أثر هذه الحياة الباسمة باديا فى سائر ماألف وصنف ، بل وفى تلك الكلمة المشهورة التى طبع بها فلسفته الدينية ، والتى أصبحت من بعد لحياته شعاراً : « كل شىء حسن ، فى أحسن العوالم الممكنة »

« Tout est pour le mieux, dans le meilleur des mondes possibles. »

صنف فى الفلسفة والعلم والدين كتبا ورسائل شريفة ، كتب بعضها باللغة الفرنسية وبعضها باللاتينية وبعضها بالألمانية ، وأشهرها « مباحث جديدة فى العقل الانسانى » وهو كتاب كتبه ردا على الفيلسوف الانجليزى لوك ، ثم كتاب « تيوديسيه » ومعناها فى اصطلاح ليبنتس (العدالة الالهية) ثم كتاب « مونادولوجيا » أى نظرية الجوهر الفرد.

كان كريم المعشر ، دمث الأخلاق يألف الناس ويألفونه . وكان يتحاشى أن يؤذى أقل الحيوانات : فكان يأخذ الحشرة ليفحصها بالمكرسكوب ، ثم يعيدها الى الورقة التى انتزعها من عليها فى رفق ولين .

حفلت حياته بجلائل الأعمال ، وظل دائبا على التفكير والدرس حتى لقد فاضت روحه وبيده كتاب يقرأه .

*
* *

رأى ليبنتس فى فلسفة ديكارت وهوبز وسبينوزا خطرا يتهدد مافى الطبيعة من اعتبارات دينية وفنية . لأن أولئك الفلاسفة ، على ما كان بينهم من اختلاف ، يتفقون جميعا فى أنهم أقاموا أوحاولوا أن يقيموا نسقا طبيعيا ، آليا (ميكانيكيا) محضا ، من حيث جانب الوجود المادى ، أعنى أنهم تصوروا العالم خلوا من معانى الغاية والتدبير ، وكأنه فى نظرهم ليس الا محض آلة تتحرك كما تتحرك الآلات .

فجاء ليبنتس وأخذ على عاتقه أن يتخطى هذا التصور الآلى للطبيعة ، وحاول أن يبين أن القوى التى تعمل فى الآلية انما تحددها وتوجهها الغائية ، بحيث أن كل تدرج فى الاسباب والنتائج الآلية ، إن اعتبر من الداخل ، صار تدرجا فى الوسائل والغايات . وان صميم العالم انما ينطوى فى كل نقطة على اتجاه ، ونمو ، وتقدم .

وبفضل هذه الفكرة — التى وفقت بين مذاهب الآلية والغائية ، وبين حالات الجواهر الفردة على اختلافها ، كما لاءمت بين الروح والبدن — ظن ليبنتس أنه يستطيع بها فى الوقت نفسه . أن يوفق بين العقل والدين ، وكان مقتنعا بأن فلسفته كفيلة بارضاء أدق مطالب الدين وأبعدها . والحق أن ليبنتس كان مخلصا فى سعيه للتوفيق بين الفلسفة والدين . ولم تغب هذه الفكرة عن ذهنه مدى حياته . ولقد كان يؤمن أن جميع عناصر الكون وذراته مؤتلفة متسقة . وهذا الاتساق الكونى ليس ثمرة للمستقبل فحسب ، بل هو كامن فى النفوس من قبل ، لكن أكثر الناس لا يعلمون .

*
* *

أما المسألة الدينية فقد أثار الكلام فيها « بيل (Bayle) » أحد كبار المفكرين من معاصرى ليبنتس ، وصاحب «القاموس التاريخى النقدى » المشهور . وقد كتب « بيل» بحثاً تناول فيه مسألة العناية الالهية ، ووجود الشر فى الدنيا ، أتى فيه على شبه الملحدين والمانوية والابيقوريين ، وانتهى منها الى القول بأنه ، يرى أن الدين والعقل يتعارضان ولا يتفقان . وان كان يؤمن بعقائد الدين .

وقد كان لتلك الشبه التى أثارها « بيل» فى مسألة الشر أعمق الأثر فى نفس ملكة بروسيا ، تلميذة ليبنتس ، فطلبت الى استاذها الفيلسوف أن يتولى دحض هذه الحجج وتفنيدها ، فنهض الفيلسوف لهذه المهمة وصنف باللغة الفرنسية — التى كان يتقنها ايما اتقان — كتابه الموسوم «تيوديسيه» أى العدالة الالهية ، وعنوانه الكامل :«بحث فى خيرية الله وحرية الانسان وأصل الشر». بادر ليبنتس بنشر هذا الكتاب وقدم بين يديه رسالة عنوانها « مقال فى موافقة العقيدة الدينية للعقل » وفى هذا المقال نرى الفيلسوف يعرض لمزاعم « بيل » بصدد الشر والعناية وينتهى الى تقرير تلك النظرية الموروثة فى علم الدين ، وهى أن حقائق الاعتقاد فوق العقل ، ولكنها ليست تنافيه . ثم أخذ ينبه على وجوب التفريق بين ماهو فوق العقل ، وبين ما ينافى الدين ، وأخذ يقسم الحقائق الى : (١) حقائق عقلية أو أزلية وهى مبنية على مبدأ الذاتية (١) أى أنها ترجع الى أشياء فى ذاتها

(١) مبدأ الذاتيــة هو القائل على حد تعبير المناطقة المحدثين : ما هو ، هو . وما ليس هو ، ليس هو .

ومعناها واحدة ، والقول بضدها يستلزم التناقض . (ب) حقائق حاصلة جائزة ، وتقوم على مبدأ السبب الكافى[١] . وضدها لا يستلزم تناقضاً ما .

وليس شيء مما ينبغى الاعتقاد به بجائز أن يناقض النوع الأول من الحقائق العقلية . أى الأزلية : فمثلا وجود الله لا يكون ممكناً إلا إذا لم يتناقض مضمون الصورة الذهنية مع لفظ الله ، ولم تتناقض الصفات المنسوبة الى الله . لكن رأياً من الآراء يجوز أن يكون فوق ما تعلمنا التجربة . لأن الضرورة العقلية لتسلسل الظواهر — تلك الضرورة التى نجدها عن طريق مبدأ السبب الكافى — هى دائماً محاطة بظروف . فالضرورة المنطقية أو «الميتافيزيقية» لقضية من القضايا تحصل مباشرة أو بالواسطة من امتحان حدود هذه القضية . وضرورة قضية من القضايا الحاصلة ، مثل قدوم الانجليز الى مصر عام ١٨٨٢ ، إنما ترجع الى حوادث سابقة ، كرغبة الانجليز فى الاحتفاظ بالهند أو الاستعمار . . . الخ .

وحيث إن تلك الحوادث السابقة ليست فى نفسها ضرورية إلا بمقتضى ظروفها ، وهكذا الى غير نهاية ، فقد جاز أن نقول : إن عدم قدوم الانجليز الى مصر فى تلك السنة ، يبقى ممكناً من الوجهة الميتافيزيقية . ومن أجل هذا يصح أن نعرف الحقائق الحاصلة أو الجائزة : بأنها تلك التى لا يمكن الوصول الى أسبابها الكاملة الا بتحليل لا نهائى يمتنع أن يقوم به العقل الانسانى ، فى حين أنه يكفى تحليل محدود لاثبات الحقائق العقلية الأزلية . ويرى ليبنتس أن مبادئ علم الطبيعة لا تفسر الا بفكرة العناية والتدبير الالهى ، أعنى بمبدأ غائى . ومبدأ السبب الكافى — مبدأ الحقائق الحاصلة — يفضى بنا الى ما وراء التجربة . ثم إن ائتلاف الجواهر الفردة ، والتسلسل القياسى لكل مايحدث لا يمكن فعلا أن يفسر إلا بكائن مطلق ، خلق الدنيا بمقتضى اختيار صائب سديد . فكل شيء فردى ، وكل حادثة فردية ، فى نفسها ممكنة ، فلسنا نتوصل اذن الى اتمام سلسلة العلل والاسباب ، وارضاء مبدأ السبب الكافى تمام الرضى ، ما لم نرجع الى سبب أول ، هو سبب لذاته ولا سبب له ، وهو الله .

ويستدل ليبنتس على صواب الاختيار الالهى بقوله : « ان ثمة خارج هذا العالم الموجود أى فى العقل الالهى — عدداً لا نهاية له من العوالم الممكنة الوجود ، والتى لا يخضع كل

(١) مبدأ السبب الكافى هو — كما يعرفه ليبنتس نفسه — «لا شيء يحصل مطلقاً دون أن يكون هناك علة أو سبب معين على الأقل ، يبرر لماذا كان وجود هذا الشيء أولى من عدم وجوده ، ولماذا كان هذا هكذا أولى من أن يكون على أى شكل آخر »

واحد منها الا لمبدأ عدم التناقض . فمن بين جميع تلك العوالم الممكنة ، أيها تقع عليه المشيئة الالهية العالية ، وأيها يختاره الله فيمنحه الوجود ؟ يجيب ليبنتس من غير تردد بقوله « إن الحكمة العالية المقرونة بخيرية لا نهاية لها ، لا يعوزها أن تختار أحسن الأشياء »

واذن فالله قد خلق بالضرورة أحسن العوالم الممكنة ، والدنيا الراهنة هى خير ما يمكن أن تكون . ذلك هو مذهب ليبنتس فى التفاؤل الذى نادى به ، وكان باذاعته من المحسنين .

***

وإليك صورة ملخصة من طريقته فى الاستدلال على هذا المذهب المشهور قال : « الله هو السبب الأول للأشياء » فينبغى أن يكون ذا كمال مطلق فى القدرة والحكمة والخيرية(١) ولما كان الله إنما يتصرف فى خلق الأشياء وفق عقله الاسمى اللامحدود ، فان جليل حكمته المقرونة بخيرية لا حد لها ، لا يعوزها أن تختار من العوالم أحسنها ، لأنه إذا لم يكن الأحسن من بين جميع العوالم الممكنة ، لما اختار الله منها شيئاً . إذن فالله قد خلق ضرورة خير العوالم الممكنة ، اعنى العالم الذى يحقق اكبر قسط ممكن من الكمال . »

ورب معترض يقول : إذا كان الله قد اختار من بين جميع الممكنات أحسنها ، فلم اذاً جاء الشر ولم كانت الخطيئة ؟ وقد كان جائزاً أن يوجد المدبر الاول خيراً محضاً مبرأ عن الشر

فيرد ليبنتس بأن « تصور عالم ليس فيه شر ولا ألم هو أقصوصة من الاقاصيص ، ومحض خيالات(٢) » ولو محى الشر من الوجود أصلا ، فحينئذ لم يكن هو هو ، ولم يكن أحسن العوالم الممكنة . ولئن كان محو الشر جائزاً فى الوجود المطلق فليس بجائز فى الوجود الانسانى وهو بطبيعته محدود ، ولن يطلب الكمال فى شىء انسانى أيا كان . ولا ينبغى أن نقصر نظرنا على جزء من العالم . بل يجب النظر الى المجموع المرتبطة أجزاؤه أوثق ارتباط ، وأحوال العالم مدبرة بعضها بالقياس الى بعض أحكم تدبير ، وما قد يبدو نقصاً فى الجزء ، يكون فى الكل كمالا .

ألست ترى أن الصوت يكون فى نفسه « نشازاً » فاذا التأم فى مجموع موسيقى حصل منه تأثير شجى فائق ؟ والكل انما رتب فيه الله المدبر القوى الفعالة والمنفعلة والسماوية والارضية ، الطبيعية والنفسانية ، بحيث يؤدى الى النظام الكلى ، مع استحالة أن يكون

(١) كتاب « العدالة الالهية فقرة ٧ »

(٢) كتاب «العدالة الالهية فقرة ١٠ . . . »

هو على ما هو عليه ولا يؤدى لها شرورا . على أنه قد يحدث من الشر خير فى بعض الأحيان والشر فى أشخاص الوجودات قليل ، ومع ذلك فان وجود ذلك الشر فى الأشياء ضرورة تابعة للحاجة الى الخير ، كالنار فان كمالها الاحراق ، والاحراق بالقياس اليها خير وان كان شراً بالقياس الى المتألم منها .

يقولون : إن الشر فى الدنيا أكثر من الخير وأغلب . ويقول ليبنتس : ان هـذا خطأ فان الشر كثير ، ولكنه ليس بأكثر من الخير . فالأمراض كثيرة والمرضى كثيرون ولكنهم ليسوا بأكثر من الاصحاء المعافين . والواقع أن الله قد أسبغ علينا نعما وخيرات وفيرة ، ولكن قلة انتباهنا اليها تقلل من شأنها ، والعادة تجعلنا أقل شعوراً بها .

ويقول « بيل » إن الانسان شقى شرير ، وان المستشفيات والسجون منتشرة فى كل مكان ، وما التاريخ إلا مجموعة من جرائم الجنس الانسانى ومصائبه »

فيرد عليه ليبنتس : « أنا أعتقد أن فى ذلك غلواً . فان فى حياة الانسان من الخير شيئاً كثيراً لا يمكن أن يقاس به الشر ، كما يوجد من المنازل كثرة لا تقاس بها السجون . وعندى أن من عيوب المؤرخين أنهم يهتمون بنواحى الشر أكثر مما يهتمون بنواحى الخير[1] . »

لكن كون هـذا العالم خير العوالم الممكنة لا يعنى أن يكون خلوا من الجوانب السيئة ، مبرأ من الشوائب والعيوب . وهل يستطيع الانسان أن يقدر الشباب الا اذا جاوزه الى سن الشيخوخة ؟ ولقد ورد فى الحديث الشريف ما معناه ، ان الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه الا المرضى . فلكى يشعر الانسان بالسعادة اذا أقبلت ، يجب أن يكون قد عرف الشقاء ، وبغير الألم لا يكون للذة معنى . حكم على سقراط الفيلسوف بالموت ، فأودع السجن ، ولبث فيه مقيداً بالاغلال . ويروى لنا القفطى صاحب كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » أن سقراط حينما فك عنه القيد شعر بشىء من اللذة فقال أمام جمع من أصحابه وتلاميذه : « ما أعجب فعل السياسة الالهية ! كيف قرنت الأضداد بعضها ببعض ، فانه لا يكاد يكون لذة إلا تبعها ألم ، ولا ألم إلا تبعه لذة . فانه قد عرض لنا بعد الألم الذى كنا نجده من ثقل الحديد فى موضعه لذة »

(١) « عدالة الهية فقرة ١٤٨ »

وكم من أناس يبيتون آمنين فى سربهم ، معافين فى أبدانهم ، وهم مع ذلك لا يشعرون بهذه النعمة ولا يشكرون ، حتى إذا مسهم المرض وولت عنهم السلامة ، أصبحوا عليها نادمين .

على أننا نعلم أن شرا من الشرور . كثيراً ما يكون مصدر خير كثير ، وقائد الجيش تحدث منه أحياناً غلطة تفضى الى الظفر فى معركة عظيمة .

يجب أن نعترف مع هذا بأن فى الحياة الدنيا مساوئ ، وقلاقل أظهرها ما يصيب الكثيرين من الأخيار ، من حظ عاثر ، وما يرتع فيه الأشرار من عز وسلطان[١] ولكنا نقول مقتنعين أنه اذا كان الكرام الأبرار لا يجدون جزاءهم فى هذه الدار ، ففى الدار الأخرى خير عزاء وجزاء . ذلك مايقضى به الدين والعقل أيضاً[٢]

من الناس من يحلو لهم دائماً أن يشتكوا الاقدار . ويذموا الزمان . وهذا ناشىء فى الحقيقة من ضعف النفوس ، وقلة رسوخ الأيمان ، ثم هو جزء من الاعتراض على تدبير الله سبحانه وما كانوا فيه من المنصفين . فينبغى ألا نسلك صراط أولئك المتذمرين الساخطين . وأن نقبل على الحياة باسمين متفائلين . وكذلك شأن المؤمنين المحسنين .

***

هذا مجمل لمذهب التفاؤل كما شاء أن يعرضه علينا فيلسوف الألمان ونلخصه نحن فى تلك الكلمة الاسلامية المشهورة . « ليس فى الامكان أبدع مما كان » . وقد سقناه اليوم فى طريق الجمع بين الفلسفة والدين . وقصدنا أن نوفق بذلك الى أن نرفع شكوك المرتابين ، وندفع عن العناية شبه المنكرين . ونسرى عن النفوس من وقع فلسفة العابسين المتشائمين ، وعلى الله وحده اعتمادنا ، وبه نستعين .

أما معضلة الشر . وكيف نشأ ودخل فى القضاء الالهى ، فوعدنا بسطها فى الشهر القادم إن أذن الله ؟

عثمان أمين

(١) « عدالة إلهية » ١١ فقرة ١٦

(٢) « عدالة إلهية » ١١ فقرة ١٧